المحاضرة التاسعة

السرد الفلسفي

"اعلم أن من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه

أي (الفلسفة الإشر اقية) فعليه بطلبها والجد في اقتنائها"

ابن طفيل

أولا. مرتكزات الفلسفة الإشراقية:

نقطة الارتكاز في الفكر الفلسفي العربي-الإسلامي هي: ثنائية العقل/النقل، أو الفلسفة/الدين، هذه الثنائية كما اشتغل عليها؛ "الكندي" (فيلسوف العرب)، و"الفارابي" (المعلم الثاني)، و"ابن سينا" (صاحب الشفاء) في المشرق، اشتغل عليها كذلك "ابن حزم" الأندلسي صاحب "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، و"ابن باجة"، و"ابن طفيل" و"ابن رشد" في المغرب.

وإن كان معظم هؤلاء اشتغلوا على هذه القضية الشائكة (العقل/النقل) في أطاريحهم الفكرية والفسلفية فإن ثمة من نهج نهجًا آخر وهو طريق الخيال السردي والنمط القصصي في المعالجة، بدأ هذا الطريق مع "ابن سينا" (ت980ه) في رسالته الرمزية رسالة (حي بن يقظان) و" "حي" يقصد به العقل الفعال، أو النفس الملكية المفكرة، وهذا العقل حي دائما؛ وابن يقظان كناية عن صدوره عن القيوم، والرحلة الموصوفة في الرسالة رمزية، ترمز إلى طلب الإنسان المعارف الخالصة، بصحبة رفقة من الحواس"[1].

وبعد ابن سينا بنحو قرن ونصف، وضع لنا الفيلسوف العربي ابن طفيل (1185ه) رسالة صوفية رمزية قصصية هي قصة "حي بن يقظان" تعد الأشهر والأفضل في هذا النمط القصصي، يقول أحمد أمين عن قصة "ابن طفيل: "كانت قصة غريبة لطيفة، فيها المعاني

[1] محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط3، 1983، ص231.

الفلسفية العميقة والحالات القصصية اللطيفة؛ صاغ ذلك كله في عبارة أدبية رفيعة جزلة، قلدها بعض أهل المشرق والمغرب"[1].

وبعده جاء السهروردي (شهاب الدين يحي حبشي) (ت1183ه) وألف قصة عنوانها: (الغريبة الغربية)، متأثرا بقصة حي بن يقظان لابن طفيل بعد إطلاعه عليها، يقول في مقدمتها: "لما رأيت قصة حي بن يقظان لابن طفيل فصادفتها مع ما فيها من عجائب الكلمات الروحانية والإشارات العميقة، عارية من تلميحات تشير إلى الطور الأعظم... أردت أن أذكر طورًا من قصة سميتها أنا قصة الغريبة الغربية"[2].

هذا وقد ترجمت قصة "حي بن يقظان" لابن طفيل إلى الآداب الأوربية، كما أثرت بجمالها وعمق معانيها في كثير من أدباء الغرب[3].

فقد ترجمت إلى اللغة العبرية عام 1341م، ثم إلى اللاتينية عام 1671م بعنوان الفيلسوف المعلم نفسه على يد يوكوك، ثم ترجمت إلى اللغة الإنجليزية على يد جورج كيت.

أما من جهة التأثير، فإن قصة "حي بن يقظان" قد أثرت أولاً في الكاتب الإسباني "بلتاسار جراثيان" (ت1658م) في قصته الموسومة (النقادة)، وفيها نقد للعادات والتقاليد في عصر المؤلف، وقد ترجمت قصة ابن طفيل إلى الفرنسية، على يد "ليون جوتييه" عام 1936، وإلى الروسية على يد "كوزمين" عام 1920م.

ثانيا. حياة ابن طفيل:[4]

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن أحمد بن طفيل القيسي، ولد بمدينة قرطبة (500هـ- نحو 1106م)، لا نعرف الكثير عن طفولته إلاّ ما ذكره عبد الرحمن المراكشي

---

[1] أحمد أمين، ظهر الإسلام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الخامسة، 1953، ص245.

[2] غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص236.

[3] ينظر، المرجع نفسه، ص238 إلى 242.

[4] للتوسع ينظر: - أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج3، ص242 إلى 245.
- ابن طفيل، حي بن يقظان، موفم للنشر، مقدمة زواوي بغورة، ص02 إلى ص06.
- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، المجلد الثاني، ص109.

في كتابه "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" يقول فيه أنه قرأ على جماعة من المتحققين بعلم الفلسفة منهم أبو بكر بن الصانع المعروف باب باجة.

أقام ردحا من الزمن في بلاط الموحدين خاصة مع الأمير يعقوب بن يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي العيشي، فقد كان طبيبا في دولة الموحدين، فاشتغل في بلاطهم، وهو الذي قدم إلى هذا البلاط "ابن رشد"، وكان "ابن طفيل" أسنّ منه، وهو أيضا الذي حبب إلى "ابن رشد" تلبية رغبة الخليفة في شرح كتاب أرسطو، توفي ابن طفيل سنة (581هـ-1185م) في مدينة مراكش ودفن فيها.

له مؤلفات في الطب والفلك والفلسفة، ما وصلنا من مصنفاته كتاب أسرار الحكمة المشرقية، طبع بمصر 1882.، رسالة حي بن يقظان، وغايتها الإجابة عن سؤال حول الفلسفة الإشراقية أو (الحكمة الإشراقية والمقصود بالإشراق التصوف، مذهب الفارابي وابن سينا في الفكر الإسلامي).

ويعد ابن طفيل"أول من ساق الآراء الفلسفية والعلمية سياقا قصصيا"[1]. إلا أنه في رأي عمر فروخ يفتقر إلى الدقة والدليل، إذ ذكر كثير من المحققين أن ثمة من المفكرين من سبق ابن طفيل في استخدام القصص الرمزية الخيالية الأسطورية أمثال ابن سينا والفارابي وإخوان الصفا وغيرهم من أصحاب العقول الكبيرة الفاعلة في الأفكار والمذاهب والمعتقدات[2] بل إن هذا المسلك قديم فقد عرفت أمثال هذه الأساطير الخيالية في قالب أخبار أو ملاحم أو قصائد صوروا فيها أفكارهم، شأن أسطورة هوميروس القديمة[3].

وما يجمع عليه كتاب السير ، أمثال ابن خلكان، وابن أبي أصيبعة وعبد الواحد المراكشي ولسان الدين بن الخطيب "أن ابن طفيل كان فلكيا، ورياضيا وطبيبا وشاعرًا ناثرًا رشيق الأسلوب رقيق العبارة"[4].

---

[1] عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1982، ج5، ص470.

[2] مصطفى غالب، ابن طفيل (في سبيل موسوعة فلسفية)، دار ومكتبة هلال، 1985، ص05.

[3] ينظر، المرجع نفسه، ص06.

[4] محمد لطفي جمعة، تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، المكتبة العلمية، ص98.

فابن طفيل يعد من أشهر فلاسفة الأندلس إلى جانب كل من "ابن باجة" (ت533هـ)، صاحب رسالة الوداع، وابن رشد (ت595هـ)، صاحب "فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال" وكتاب "بداية المجتهد ونهاية المقتصد " وغيرها من الكتب.

ثالثا. قصة حي بن يقظان:

تدور حوادث قصة "ابن طفيل" الفلسفية، على العموم، في جزيرتين:

– يعيش على إحدى هاتين الجزيرتين مجتمع إنساني له شرائعه وتقاليده الخاصة به.

– وعلى الأخرى يعيش رجل "متوحد"، بلغ من الكمال الروحي أقصى درجاته، بعيدًا عن كل محيط اجتماعي، دون أن يكون له معلم بشري يمد له يد العون.

– الجزيرة الأولى: سكانها يتبعون شريعة معينة ولهم قانون يحكم وينظم حياتهم.

من سكان هذه الجزيرة رجلان مميزان هما سلامان وآسال.

سلامان: ذو الفكر العملي الاجتماعي

آسال: ذو طبع تأملي صوفي، يعيش العزلة في جزيرته، فقرر أن يهاجر إلى الجزيرة المقابلة (على اعتبار أنها خالية من البشر) ليمارس طقوسه الروحية وتأملاته الفلسفية.

– الجزيرة الثانية: يسكنها متوحد يدعى "حي بن يقظان"

ولادته: مختلف فيها فهي إما:

– التوالد الطبيعي (الذاتي) من مادة قد نفخ فيها العقل الفعال فيها قوة روحية من عنده.

– أو ولد من أبوين، وألقي في اليم طفلا فتقاذفه الموج إلى شاطئ الجزيرة، وقد قامت غزالة أو ظبية أو عنزة بالاعتناء به فأرضعته وربته.

تعلمه: "حي" ليس له معلم ظاهر، بدأ التعلم الذاتي كلما تعلم ارتقى حتى يصل في النهاية إلى نضج الفيلسوف الكامل، تعلم كيف يميز بين الصورة والمادة والارتقاء من المعرفة الحسية إلى أعتاب العالم الروحاني.

– التقاء آسال مع حي: وبعد تجاوز العائق اللغوي في التواصل (آسال تعلم لغة حي، كما علّم آسال حي الكلام).

لقد وجد آسال أن كل ما تعلمه من أصول العقيدة الدينية في جزيرة البشر يعرفه "حي" الفيلسوف المتوحد معرفة أكثر صفاء وكمالاً، وقد هداه العقل الفعال إلى ذلك.

كما اكتشف آسال ماهية الرمز وأن العقيدة ما هي إلا رمز لحقيقة روحية.

– هجرة حي وآسال إلى الجزيرة المجاورة، استقل "المتوحدان" باخرة كانت قد اقتربت من الشاطئ اتفاقًا، ونزلا في الجزيرة التي كان يقطنها ر(آسال)، فاستقبلا بحفاوة. لكن المتوحدين بدءوا يلاحظان أنه كلما تعمقا في الشرح الفلسفي، أخذ النفور يحل محل الصداقة فأدرك الصديقان أن المجتمع البشري مستعصي الشفاء.

العودة إلى جزيرة "حي": عاد حي وآسال إلى الجزيرة الخالية من البشر، وعرفا منذ ذلك أن السعادة والكمال، لا يجد إليهما سبيلا إلا نفر أولئك هم الذين توفرت لديهم قوة التخلي والإعراض(*). وللتوضيح أكثر نجمل مضامين القصة في هذه الترسيمة:

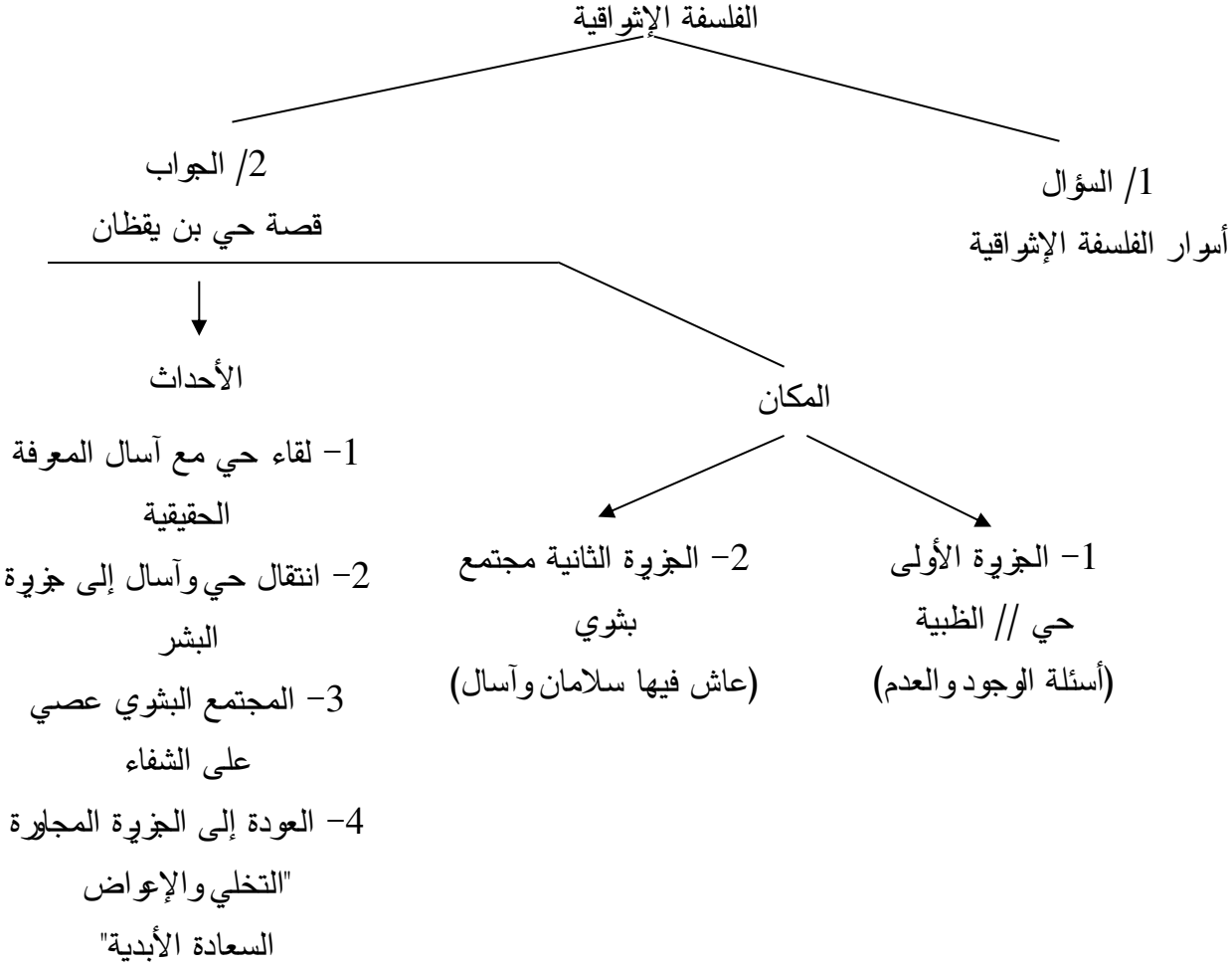

إن الإطار العام لقصة "حي بن يقظان" هو تصورات "ابن طفيل حول المعرفة بين الدين والفلسفة في قالب قصصي رمزي وقيمة هذا الأثر الفني الخالد لابن طفيل، يبدو جليا في رموز القصة وإشاراتها العرفانية التي حشدها ابن طفيل للتعبير عما يتفاعل في أفكاره من

(*) اعتمدنا في تلخيص أحداث هذه القصة الرمزية على ما جاء في كتاب: هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1988، ص353–357.

آراء وابتكارات أدبية رفيعة يجدها بطل القصة "حي" بتنسيق عجيب وتأملات عقلانية فاعلة في أحداث القصة بكاملها[1]

ومن أهم القضايا الفلسفية[2] التي عالجها ابن طفيل في قصة حي بن يقظان:

قضية اتفاق العقل والدين أو الفلسفة والشريعة.

قضية قدم العالم أو حدوثه.

قصية التدرج في المعرفة الإنسانية من معرفة حسية إلى معرفة عقلية إلى معرفة ذوقية صوفية.

نقد نظريات الفلاسفة، خاصة طريقة الاتصال لابن باجة، ونظرية السعادة للفارابي، وكذا نقده للغزالي وابن سينا.

إن الغاية الكبرى من تأليف ابن طفيل لقصة حي بن يقظان هي (كيفية المعرفة) "فالإنسان يستطيع أن يصل إلى إدراك الحقائق ولو كان قد نشأ في عزلة تامة ولم يتلق أية ثقافة خارجية، ولم يحتمل أقل أثر من غيره إلاّ أثر العقل الفعال"[3] الذي ينير الطريق ويوصل الإنسان إلى معرفة الخالق وتوحيده.

وتبقى هذه القصة علامة فارقة في تاريخ السرد الفلسفي القديم والحديث، على السواء. والملاحظ أن هذه الرائعة الفلسفية تحتوي كثير من المعالم والمعارف الصوفية، وهي التي نفصلها في المحاضرة الموالية عندما نتحدث عن السرد الصوفي، وأعلامه ومعارفه.

رابعا. للتطبيق: مقتبس من قصة حي بن يقظان:

سلامان وآسال

ذكروا أن جزيرة قريبة من الجزيرة التي ولد بها "حي بن يقظان" قد نشأ بتلك الجزيرة فتيان من أهل الفضل والرغبة في الخير، يسمى أحدهما "آسال"، والآخر "سلامان"... وأما

---

[1] مصطفى غالب، ابن طفيل، ص09.

[2] للتوسع في هذه القضايا العودة إلى:

1- ابن طفيل، حي بن يقظان، موفم للنشر.

2- مصطفى غالب، ابن طفيل، مكتبة الهلال.

3- هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، منشورات عويدات، بيروت.

4- محمد لطفي جمعة، تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، المكتبة العلمية.

[3] محمد غلاب، المعرفة عند مفكري المسلمين، الدار المصرية للتأليف والطباعة، القاهرة، ص278.

"آسال" فكان أشد غوصا على الباطن، وأطمع في التأويل، وأما "سلامان" فكان أكثر احتفاظا بالظاهر، وأكثر بعدًا عن التأويل... فتعلق آسال بطلب العزلة... وتعلق سلامان بملازمة الجماعة.. وكان آسال قد سمع عن الجزيرة التي ذكر أن "حي بن يقظان" تكوّن بها.. فأجمع على أن يرتحل إليها ويعتزل الناس بها بقية عمره، فركب متن البحر إلى تلك الجزيرة، وبقى "آسال" \ابتلك الجزيرة يعبد الله –عز وجل– ويعظمه ويقدسه، وإذا احتاج إلى الغذاء تناول من ثمرات تلك الجزيرة وصيدها ما يسد به جوعته... وكان في تلك المدة "حي بن يقظان" شديد الاستغراق في مقاماته الكريمة، فكان لا يبرح عن مغارته إلاّ مرة في الأسبوع... إلى أن وقع بصر كل واحد منهما على الآخر.

فولّى "آسال" هاربا منه، خيفة أن يشغله عن حاله، فاقتفى "حي بن يقظان" أثره... حتى التحق به، فلما نظر إليه "آسال"، وهو مكتسي بجلود الحيوانات، فرق (خاف) منه خوفا شديدًا.. فجعل يكلم "حي بن يقظان" ويسأله في شأنه بكل لسان يعلمه... وهو لا يجيب، فشرع آسال في تعليمه الكلام... حتى علمه الأسماء كلها، فعندما اعلمه "حي بن يقظان" أنه لا يدري لنفسه ابتداءً، ولا أبا ولا أما أكثر من الظبية التي ربته، ووصف له شأنه كله، وكيف ارتقى بالمعرفة حتى انتهى إلى درجة الوصول، فلما سمع "آسال" منه وصف تلك الحقائق ووصفه ذات الحق تعالى وجل، بأوصافه الحسنى... [أدرك مدى تطابق وصف حي مع ما ورد في شرعية آي آسال] فتطابق عنده المعقول والمنقول، وعند ذلك نظر إلى "حي" بعين التعظيم والتوقير وتحقق عنده أنه من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ابن طفيل، حي بن يقظان، طبعة موفم للنشر، 199، من ص145 إلى ص153. بتصرف

المطلوب: في هذا الجو الفلسفي كثير من المعالم والمعارف الفلسفية، حاول استنباطها ودعمها بنصوص قرآنية وأحاديث نبوية.